المنهجية التأريخية عند المقريزي بين النقد والتحليل
من خلال كتابه إغاثة الأمة بكشف الغمة

د/محمود عيسى السيد محمد

مدرس التاريخ والحضارة الاسلامية كلية الآداب جامعة العريش

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث المنهجية التأريخية بين النقد والتحليل عند أبى العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم ويلقب بتقي الدين، ويعرف بالمقريزي من خلال كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " الذى تناول فيه تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلي سنة ٨٠٨ هـ وهي السنة التي أُلف فيها، وقد تعرض بالبحث فى الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر، حيث يحاول أن يتقصي أسبابها، ويقترح العلاج الاقتصادي الصحيح لدائها ودوائها، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصري في عهده بالتقسيم والتصنيف، ويصف كل طبقة من طبقاته في شيء من التفصيل، دراسة ناقدة تحليلية، يغلب عليها الطابع الاقتصادي الاجتماعي، كما أنه ينتقد كثيراً من الأوضاع القائمة في الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام، و يُرجع تلك الأزمات التي تحل بالبلاد إلي تلك الأوضاع والتصرفات، ونراه يحلل تلك الأزمات تحليلاً اقتصادياً، يجمع بين العمق والإيجاز، ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها في عصر سلاطين المماليك. وبعد أن يستعرض تاريخ المجاعات يحاول تشخيص أسباب الأزمة الطاحنة التي كانت مصر تعيش في ظلها في أوائل القرن التاسع الهجري ويقترح الحلول العملية لها. وقد تضمن البحث التعريف بالمقريزى وأهمية كتابه،و الكتابة التاريخية فى عصره و المنهجية التأريخية عنده و النقدى التأريخى الذى يتبعه و المنهج التحليلى عنده، والعديد من النتائج التى توصل إليها الباحث.

Search summary:

This research deals with the historical methodology between criticism and analysis according to Abu Abbas Ahmad bin Ali bin Abdul Qadir bin Muhammad bin Ibrahim, nicknamed Taqi al-Din, and known as al-Maqrizi through his book "Relief of the Ummah Bi Kashf al-Ghammah," in which he dealt with the history of the famines that befell Egypt from the earliest times until the year 808. E,

which is the year in which it was written, and it presents research into the socio-economic aspect of Egyptian history, where it attempts to investigate its causes and proposes the correct economic treatment for its disease and cure. It also deals with the classes of Egyptian society in his era by division and classification, and describes each of its classes in some way. detail, A critical and analytical study, predominantly of a socio-economic nature. It also criticizes many of the existing conditions in the country and the associated misconduct of the rulers, and attributes those crises that befall the country to those conditions and actions, and we see him analyzing those crises with an economic analysis, combining depth and brevity. He explains its economic and social effects, which makes this book an intellectual phenomenon of importance and danger in the era of the Mamluk sultans. After reviewing the history of famines, he attempts to diagnose the causes of the devastating crisis that Egypt was living under in the early ninth century AH and proposes practical solutions to it. The research included an introduction to Al-Maqrizi, the importance of his book, historical writing in his era, his historical methodology, the historical criticism he followed, his analytical method, and many of the results reached by the researcher.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه.

يتناول هذا البحث المنهجية التأريخية بين النقد والتحليل عندالعالم والمؤرخ واللغوي والأديب والمحدِّث والمحتسب أبى العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم ويلقب بتقي الدين، ويعرف بالمقريزي من خلال كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " الذى يتناول تاريخ المجاعات التي

نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلي سنة ٨٠٨ هـ وهي السنة التي أُلف فيها، وعلي حد علمي يعتبر الإمام المقريزي المؤرخ المصري الوحيد الذي تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر، فهو في تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصي أسبابها، ويقترح العلاج الاقتصادي الصحيح لدائها ودوائها، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصري في عهده بالتقسيم والتصنيف، ويصف كل طبقة من طبقاته في شيء من التفصيل، مما يدل دلالة حقيقية علي أن المقريزي قد اقتدي في هذا الكتاب بأستاذه ابن خلدون في مقدمته فكلاهما كتب في صميم النواحي الاقتصادية الاجتماعية، ما عدا أن كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " قاصر علي مصر الإسلامية، أما مقدمة أستاذه ابن خلدون شاملة للعالم الإسلامي بوجه عام.

أهمية البحث:

ترجع أهمية الكتاب إلي أنه دراسة ناقدة تحليلية، يغلب عليها الطابع الاقتصادي الاجتماعي، والمتتبع لما كتبه المقريزي يجد أنه ينتقد كثيراً من الأوضاع القائمة في الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام، كما أنه يرجع تلك الأزمات التي تحل بالبلاد إلي تلك الأوضاع والتصرفات، ونراه يحلل تلك الأزمات تحليلاً اقتصادياً، يجمع بين العمق والإيجاز، ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها في عصر سلاطين المماليك.

ورغم أن هذا الكتاب من الكتب الصغيرة في مؤلفات الإمام المقريزي، إلا أنه يشغل أهمية خاصة تقصر عنها الكتب الكبري عنده وعند غيره من المؤرخين، فبينما تموج مؤلفاتهم الضخمة بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء، وتؤود بحوادث العزل والولاية، وتنتعش بالتراجم والوفيات والحروب والتجاريد، حتي تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو تري إلا بمنظار، إذا بهذه الكتب الصغيرة تلقي كثيراً من الضوء علي شيء من هوية مؤلفيها، وتوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية بينهم في مختلف العصور والعهود، ذلك لأن المؤلف يعرض في أمثال تلك الكتب لمسألة معينة، فيتحلل من قيود تسجيل الحوادث، ويجرؤ أحياناً علي الإدلاء بآرائه في نظم الحكم وقواعده بل يحاول أن يعلل بعض الظواهر تعليلاً عقلياً، ويناقش بعض العيوب نقاشاً حراً يوافق العقل والمنطق.

هدف البحث :

ومما يعطى الكتاب أهمية أن المقريزى ناقش فيها الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي أمسكت بخناق المجتمع المصري في عصره، وبدأت في عام ٧٩٦ هجرية واستمرت حتى الزمن الذي ألف فيه كتابه

أوائل سنة ٨٠٨ هجرية، وهذه الرسالة الصغيرة من الكتب العربية القليلة التي اهتمت بالناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ، وربطت بينهما بشكل علمي دقيق.

منهج البحث وطريقته:

يستلزم هذا النوع من البحوث استخدام المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي، مع الدراسة والتحليل والاستنتاج، وذلك وذلك من خلال كتابات المقريزى فى الكتاب موضوع البحث مع الالتزام بتوثيق المعلومات من أماكنها و مصادرها.

تقسيم البحث:

تضمن تقسيم هذا البحث بعد المقدمة خمسة مباحث وخاتمة،اشتمل المبحث الأول على التعريفربالمقريزى وأهمية كتابه،والمبحث الثانى عن الكتابة التاريخية فى عصر المقريزى والمبحث الثالث عن المنهجية التأريخية عند المقريزى والمبحث الرابع عن النقدى التأريخى عند المقريزى والمبحث الخامس عن المنهج التحليلى عند المقريزى،أما الخاتمة فقد تضمنت العديد من النتائج التى توصل إليها الباحث.

المبحث الأول

المقريزى وأهمية كتابه

هو أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم ويلقب بتقي الدين، ويعرف بالمقريزي، ويكني بأبي العباس، فهو العالم والمؤرخ واللغوي والأديب والمحدِّث والمحتسب، (١).وُلد أبو العباس أحمد بن علي المقريزي في القاهرة عام ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٦ م ، (٢) ونشأ نشأة طيبة، في بيئة حضارية وكان يعتز دائما ويفخر بأنه وُلد بين جنبات القاهرة، وفي حي من أكثر أحيائها امتلاءً بالنشاط والحيوية ومملوءاً بالنشاط الاجتماعي والاقتصادي "(٣). وكان جد المقريزي من كبار المحدثين في بعلبك، وقد تحول والده إلى القاهرة، حيث ولي بعض وظائف القضاء، وكتب التوقيع بديوان الإنشاء، ونشأ ابنه أحمد معه في القاهرة ومات أبوه وهو صغير فكفله العالم الجليل ابن الصايغ (٤) وكان جده لأمه، فكفل تعليمه وأشرف علي تنشئته وفق مذهبه الحنفي.(٥).

نشأ المقريزي في أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم سواء في الشام أو في مصر، أي أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة الفكرية من الطبقة الوسطي.

سمع المقريزى العلم على عدد كبير من الشيوخ، وأخذ عنهم إكثاره من حفظ القرآن والحديث ،وجمعه وتدوينه وغيرهما من العلوم كالنحو والفقه والتفسير، والتاريخ وتقويم البدان والحساب والأدب فأجاد النثر والنظم، وقد بلغ عدد شيوخه سواء في القاهرة وغيرها طلباً للعلم

ستمائة شيخ.(٦).

، لم يكتف بالأخذ عن شيوخه بالقاهرة، بل كانت له رحلات علمية بين القاهرة والشام ومكة، حيث التقي بكثير من العلماء، ثم رحل إلي الشام فسمع من الحافظ أبي بكر وأبي العباس بن العز، وناصر الدين محمد بن محمد بن داوُد، وطائفة (٧).ثم استقر بعد ذلك بالقاهرة، وجعل من بيته مدرسة صغيرة لتلاميذه ، وجعل منها أيضاَ مكاناَ للتأليف في مختلف نواحي دراسته ، فأخذ يعلم الناس فنون العلم، ويثري المكتبة العلمية بمصنفاته.

عكف الإمام المقريزي علي دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو، ودراسة الفقه والتفسير والحديث، وبعض العلوم الأخري مثل التاريخ وتقويم البلدان والأدب والحساب.و آثر المقريزي التفرغ للاشتغال بالعلم، (٨)،

عين الإمام المقريزي مراراَ في وظائف الوعظ، وقراءة الحديث بالمساجد الجامعة، وولي الحسبة بالقاهرة غير مرة، وهي من وظائف القضاء الهامة، وولي الخطابة بجامع عمرو بن العاص، ومدرسة السلطان حسن، والإمامة بجامع الحاكم الفاطمي، وقراءة الحديث بالمدرسة المؤيدية وغيرها، وتقلب في عدة وظائف قضائية وإدارية سواء في القاهرة أو دمشق(٩).

أهمية كتابه:

يتناول المقريزى فى كتابه " إغاثة الأمة بكشف الغمة " تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلي سنة ٨٠٨ هـ وهي السنة التي ألف فيها، وعلي حد علمي يعتبر الإمام المقريزي المؤرخ المصري الوحيد الذي تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر، فهو في تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصي أسبابها، ويقترح العلاج الاقتصادي الصحيح لدائها ودوائها، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصري في عهده بالتقسيم والتصنيف، ويصف كل طبقة من طبقاته في شيء من التفصيل، مما يدل دلالة حقيقية علي أن المقريزي قد اقتدي في هذا الكتاب بأستاذه ابن خلدون في مقدمته فكلاهما كتب في صميم النواحي الاقتصادية الاجتماعية، ما عدا أن كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " قاصر علي مصر الإسلامية ، أما مقدمة أستاذه ابن خلدون شاملة للعالم الإسلامي بوجه عام.

ترجع أهمية الكتاب إلي أنه دراسة ناقدة تحليلية، يغلب عليها الطابع الاقتصادي الاجتماعي، والمتتبع لما كتبه المقريزي يجد أنه ينتقد كثيراً من الأوضاع القائمة في الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام، كما أنه يرجع تلك الأزمات التي تحل بالبلاد إلي تلك الأوضاع والتصرفات،

ونراه يحلل تلك الأزمات تحليلاً اقتصادياً، يجمع بين العمق والإيجاز، ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها في عصر سلاطين المماليك.

ورغم أن هذا الكتاب من الكتب الصغيرة في مؤلفات الإمام المقريزي، إلا أنه يشغل أهمية خاصة تقصر عنها الكتب الكبري عنده وعند غيره من المؤرخين، فبينما تموج مؤلفاتهم الضخمة بأخبار الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء، وتؤود بحوادث العزل والولاية، وتنتعش بالتراجم والوفيات والحروب والتجاريد، حتي تكاد شخصية المؤلف لا توجد أو تري إلا بمنظار، إذا بهذه الكتب الصغيرة تلقي كثيراً من الضوء علي شيء من هوية مؤلفيها، وتوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية بينهم في مختلف العصور والعهود، ذلك لأن المؤلف يعرض في أمثال تلك الكتب لمسألة معينة، فيتحلل من قيود تسجيل الحوادث، ويجرؤ أحياناً علي الإدلاء بآرائه في نظم الحكم وقواعده بل يحاول أن يعلل بعض الظواهر تعليلاً عقلياً، ويناقش بعض العيوب نقاشاً حراً يوافق العقل والمنطق.ويزيد الكتاب أهمية أن المقريزى ناقش فيها الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي أمسكت بخناق المجتمع المصري في عصره، وبدأت في عام ٧٩٦ هجرية واستمرت حتى الزمن الذي ألف فيه كتابه أوائل سنة ٨٠٨ هجرية، وهذه الرسالة الصغيرة من الكتب العربية القليلة التي اهتمت بالناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ، وربطت بينهما بشكل علمي دقيق.

ويزيد الكتاب أهمية أن المقريزى يؤرخ لغلو الأسعار والمجاعات التي أصابت مصر منذ أقدم العصور حتى ٨٠٨ هجرية، وإذا كان الرجل قد اعتمد في سرد مجاعات العصور القديمة على روايات تغلفها الأساطير، فإنه عندما تحدث عن المجاعات والغلوات في مصر منذ عصر الولاة اعتمد على روايات المؤرخين المعاصرين لتلك المجاعات أو القريبين من عصرها، فجاء حديثه دقيقًا إلى حد كبير، وبعد أن يستعرض تاريخ المجاعات يحاول تشخيص أسباب الأزمة الطاحنة التي كانت مصر تعيش في ظلها في أوائل القرن التاسع الهجري ويقترح الحلول العملية لها.

ويزيد الكتاب أهمية أن المقريزى يذكر سبب تأليفه لهذا الكتاب فيقول: "فإنه لما طال أمد هذا البلاء المبين، وحل فيه بالخلق أنواع البلاء المهين، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مر زمن شبهها، وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها، ولا يكون أبدًا عن الخلق انفصالها، وذلك أنهم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون، ومع العوائد واقفون، ومن روح الله آيسون، ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد، لا أنه كما مر من الغلوات،

وانقضى من السنوات المهلكات."

ويزيد الكتاب أهمية أن المقريزى يشرح منهجه في التأليف، قائلًا: "فعزمت على ذكر الأسباب التي نشأ منها هذا الأمر الفظيع، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع، وأختم القول بذكر ما يزيل هذا الداء، ويرفع البلاء، مع الإلماع بطرف من أسعار هذا الزمن، وإيراد نبذ مما غبر من الغلاء والمحن، راجيا من الله سبحانه أن يوفق من أسند إليه أمور عباده، وملكه مقاليد أرضه وبلاده، إلى ما فيه سداد الأمور، وصلاح الجمهور، إذ الأمور كلها، قلها وجلها، إذا عرفت أسبابها سهل على الخبير صلاحها."

ويزيد الكتاب أهمية أن المقريزى فى محاولته لتشخيص سبب الأزمة الاقتصادية ربط بين الفساد السياسي من ناحية، والاستغلال الاقتصادي المتمثل في المبالغة في الضرائب على الأطيان الزراعية من ناحية ثانية، وانهيار النظام النقدي من ناحية ثالثة؛ فيذكر أن السبب الأول وهو أصل هذا الفساد، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من العمال الجليلة والولايات العظيمة، لتوصله بأحد حواشي السلطان ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال.

والسبب الثاني غلاء الأطيان وذلك أن قومًا ترقُّوا في خدم الأمراء يتولفوا إليهم بما جبوا من الأموال إلى أن استولوا على أحوالهم فأحبوا مزيد القربة منهم، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال، فتعدوا إلى الأراضي الجارية في إقطاعات الأمراء، وأحضروا مستأجريها من الفلاحين وزادوا في مقادير الأجر، فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء، فاتخذوا ذلك يدا يمنون بها إليهم، ونعمة يعدونها إذا شاءوا عليهم؛ فجعلوا الزيادة دينهم كل عام حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحوا من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث.

والسبب الثالث رواج الفلوس النحاس فإنه لم تزل سنة الله في خلقه وعادته المستمرة منذ كانت الخليقة إلى أن حدثت هذه الحوادث، وارتكبت هذه العظائم أن النقود التي تكون أثمانا للمبيعات وقيما للأعمال إنما هي الذهب والفضة فقط، لا يعلم في خبر صحيح ولا سقيم عن أمة من الأمم ولا طائفة من طوائف البشر أنهم اتخذوا أبدا في قديم الزمان ولا حديثه نقدا غيرهما، فأصبح للناس ثلاثة نقود أكثرها الفلوس وهو النقد الرابح الغالب والثاني الذهب وهو أقل وجدانًا من الفلوس، وأما الفضة فقلت حتى بطل التعامل بها لعزتها، وعظم رواج الفلوس وكثرت كثرة بالغة حتى صارت المبيعات وقيم الأعمال كلها تنسب إلى الفلوس خاصة."ويزيد الكتاب أهمية أن المقريزى في هذا الكتاب سابق لعلماء الاقتصاد الأوروبيين بمائة سنة في عرض وشرح النظرية القائلة بأن "النقود

الرديئة تطرد النقود الجيدة من السوق"، وقد توصل المقريزي أيضا إلى نظرية دورية الأزمات الاقتصادية، كما أدرك معنى التضخم وقدم شرحًا وافيًا له ولأثره على مختلف طبقات المجتمع، التي تناولها بشرح وافٍ، ويختتم المقريزي رسالته بمشروع للإصلاح النقدي رأى فيه مخرجًا من الأزمة الاقتصادية.

كما تكمن أهمية كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " في أن أحد فصوله أصل لرسالة أخري من رسالات الإمام المقريزي الصغيرة، وهي " شذور العقود في ذكر النقود " فقد كتبها لتكون فصلاً من فصول كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة " ثم جعلها بعد ذلك كتابا مستقلاً بعنوان خاص.

كما يتضـــمن هذا الكتاب ما يزيده أهمية أيضـــاً وهو إشـــارات علمية معقولة ذات أهمية للمشتغلين بكتابة التاريخ المصرى في العصور الوسطي، منها إرجاع الفتح الفاطمي لمصر إلي عامل اقتصادي فوق العوامل الحربية المعروفة، ومنها أيضاً أن الخليفة الفاطمي كان يلقب أحياناً بلقب " السلطان ".

فالكتاب يعطينا صـورة واضـحة ودقيقة وصـادقة عن الأسـباب والعوامل التي فجرتها، وعن النكبات والمحن التي حلت بالشعب من جراء استهتار الحكام الغارقين في الملذات وانصرافهم الكلي عن تدبير شؤون البلاد والاهتمام بمصالح العباد.

المبحث الثانى

الكتابة التاريخية فى عصر المقريزى

من المعروف أن بغداد ظلت طيلة خمسة قرون عاصمة تربط عن طريق الخلافة الاسمية الشرق الإسلامي بالحوض الشـــرقي للبحر المتوسط والبحر الأحمر، ثقافة وسياسة ومجتمعاً، واقتصاداً انتهت مهمتها تلك بسـقوطها بيد المغول، فانتهت كقطب ارتباط سـياسـي وكمركز لقاء للثقافة الإسلامية، ولكن هذا المركز غير اتجاهه من بغداد إلي دمشق والقاهرة فكلاهما ارتبط بنظام سياسي واحد استمر هذا الارتباط قرابة ثلاثة قرون، فقد تسلم المماليك حكم مصر منذ سنة، ٦٥٠هـ / ١٢٥٨م، ثم أتموا وراثة السـلطنة الأيوبية مع إماراتها المتفرقة جمعياً بعد انتصـارهم علي المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م فجمعوا بين حلب والجزيرة، إلي القاهرة ثم إلي الحجاز، وتقاسمت دمشـق والقاهرة مركز بغداد السـابق، كما توزعت هجرة العلماء المسـلمين إليهما وتبادلا بينهما بشكل مستمر، وهكذا عرفت دمشق والقاهرة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين عصراً من النهضـة يمكن أن يعتبر بحق عصـر النهضـة الإسـلامية الثانية، حيث وصـلت إلي قمتها الثانية

بعد القمة الأولي التي حققتها في القرنين الثالث والرابع، وإن تكن الثانية علي المحافظة والاتباع بعد أن كانت الأولي علي الإبداع.

أن حركة التدوين التاريخي كانت مزدهرةً بشكل لافتٍ للنظر حيث وصلت الكتابة التاريخية في العصرالمملوكي إلي أرقي مستوي وصلت إليه في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، ومن بين مؤرخي العصر المملوكي يقف المقريزي (رحمه الله) عالي الرأس، عملاقا كبيراً لا يدانيه أي مؤرخ آخر.

لقد ظهر توسع المنظور التاريخي في مصرالمملوكية في الاتجاه الحضاري، فإذا كانت كثرة التفاصيل التي يوردها المؤرخون في تواريخ الأحداث السياسية، وفي كتب التراجم والرجال قد أَدْخَلَتْ في التاريخ بصورة غير مباشرة العديدَ من ملامح التاريخ الحضاري، فإن ذلك لم يكن المجال الوحيد الذي سجّل المؤرخون من خلاله جوانب الحضارة في عصورهم، فقد طرقوا مواضيع مختلفة وجوانب شتي من القطاعات الاجتماعية، كانت تصب كلها بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الإطار الحضاري، وإننا لنجد عدداً واسعاً من المواضيع المطروقة المتنوعة مثل التعليم السياسي والتعليم الديواني والتعليم العسكري، وبعض القطاعات أو الطبقات الاجتماعية، ومواضيع تتصل بالمواقع وخططها وفضلها، ومواضيع تتصل ببلاد العالم الأخري، ومواضيع تتصل بالحياة العامة للناس مثل ما كتب الإمام المقريزي كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» والحديث عنه وغيره من الكتب.

وما من شك في أن الإمام المقريزي في جميع هذه النواحي الحضارية يقف في طليعة مؤرخي مصر في العهد المملوكي، وقد ظهر ذلك في تراثه التاريخي كله، فهو عميد لا يدانيه أحد من المؤرخين في مصر منذ العصور الوسطي حتي الآن، وكُتُبُهُ العظيمة التي خلَّفها لنا تمثل عيوناً بين الكتب التي أُخْرِجَتْ للناس في التاريخ المصري، ونخص من بين هذه الكتب كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة» الذي يمتاز موضوعه بالتفرد من حيث التناول والتحليل، مما يدل علي تفوق الإمام المقريزي، إذ يتناول تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلي سنة ٨٠٨هـ وهي السّنة التي أَلَّفَ فيها هذا الكتاب.

لذلك نستطيع أن نحكم بأن الإمام المقريزي هو المؤرخ المصري الوحيد الذي تعرَّض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر، فهو في تدوينه لأخبار المجاعات يحاول أن يتقصي أسبابها، ويقترح العلاج الاقتصادي الصحيح لدرئها ودوائها، كما أنه يتناول طبقات المجتمع المصري في عهده بالتقسيم والتصنيف، ويصف كل طبقة من طبقاته بشئ من التفصيل، مما يعكس لنا مدي أهمية هذا الكتاب التي تقصر عنها الكتب الأخري – الكبير منها والصغير– فهو يلقي الضوء علي شيء من هويَّة صاحبه، ويوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية في مختلف العصور،

ويحوي بين جنباته جرأة المقريزي علي الإدلاء بآرائه في نُظُم الحكم وقواعده، ويحاول أن يعلل بعض الظواهر تعليلاً عقلياً، ويناقش بعض العيوب نقاشاً حرًّا.

لقد تضمن هذا الكتاب قيمة اقتصادية واجتماعية، وذلك من خلال الآراء والنظريات التي سبق بها المقريزى عصره بكثير، كحديثه عن المجاعات والأوبئة التي أصابت مصر وأهلها، والدراسة الناقدة باعتبار هذا الكتاب دراسة ناقدة تحليلية يغلب عليها الطابع الاقتصادي الاجتماعي.لقد تجمع الفكر الإسلامي مرة أخري في مركز حيوي جديد مع وصول الحضارة العربية الإسلامية مرحلة نضجها الأخير، ومع نكبة بغداد وجد لدى حملة الثقافة العربية الإسلامية نوع من الخوف علي الإسلام وثقافته وتراثه، دفعهم ذلك إلي تناول التراث بالتكرار والتلخيص وجمعه في مجموعات شاملة واحدة بهدف انقاذه، ومن هنا حفل هذا العصربالموسوعات الأدبية، والموسوعات الجغرافية البشرية والديوانية والتاريخية وموسوعات الرجال، ومن بينها فاز التاريخ بالنصيب الأوفي ما يدل علي أن مصر غدت في عصر علمي واسع، يدل عليه ذلك التراث الضخم سواء الأدبي أو العلمي أو الديني، وليس ذلك فحسب بل امتد هذا النشاط العلمي إلي الفنون والصناعات اليدوية التي إن دلت فإنما تدل علي الدقة الفائقة والعبقرية الراقية، وكذلك تشييد العمائر من مساجد ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات (١٠)، وغير ذلك ، وفي مجال الرسم والزخرفة علي الخزف والمنسوجات والزجاج والبلور فضلاً عن الرسوم النباتية والأشكال ال هندسية (١١). وكذلك زخرفة المعادن والكتابة الزخرفية عليها مع الرسوم الهندسية وأوراق نباتية للحيوانات والطيور (١٢).

لقد عبر فن الرسم والتصوير عن رقيه في عصر المماليك سواء علي الزجاج والبلور أو أغلفة الكتب (١٣). وقد ساعد علي هذا النشاط الحضاري والعلمي في عصر سلاطين المماليك توافر المال الذي يعد الدعامة الأساسية لازدهار أي نشاط حضاري، وبجانب هذا المال الذي لا يعتبر الدعامة الوحيدة في بناء الحضارات بل يوجد مع المال توافر البيئة الحضارية أي الأرض الطيبة ذات الإمكانات الحضارية الراسخة، ويوجد أيضا الإنسان المنتج الإنسان الذي لديه الاستعداد ولديه القدرة علي الإنتاج والإبداع.، هذا التوافر المالي حمل عدداً من علماء المسلمين من كل مكان إلي النزوح إلي القاهرة حيث الثروة والحياة الطيبة، وحيث فرص التدريس في مدارسها خاصة أن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء المدارس لكي يظهروا شعورهم بالتقوي وتقربهم من العلماء والشعب، ولكي يتخذوا من المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم في أيديهم وتساعدهم علي دعم مركزهم في أعين الشعب من ناحية أخري (١٤)، وحيث المكتبات العلمية الزاخرة بآلاف الكتب والمخطوطات، مع تحقيق عامل الأمن في ظل قوة المماليك(١٥).

في هذا الجوُ العظيم الطيب حظي علم التاريخ بمكانة مرموقة خاصة أن عصر المماليك كان حافلاً بالحوادث الداخلية والخارجية، غنياً برجاله وأبطاله.

وهذا وذاك من الحوادث وسير الأبطال كان بحاجة إلي تسجيل وليس هناك أجدر من التاريخ لتسجيل عظيم هذه الأعمال من انتصارات علي الأعداء ورد هجماتهم وتسجيل الاصلاحات والأعمال والمنشآت، مما أدي إلي تنشيط كتابة التاريخ وظهور مجموعة كبيرة من المؤرخين، ولم يكن المماليك أنفسهم بعيدين عن هذا النشاط الحضاري والعلمي، فكان من بينهم من يميل إلي التاريخ وأهله مثل الظاهر بيبرس. (١٦) وكذلك السلطان الغوري (ت: ٩٢٢هـ) صاحب المجالس العلمية والدينية التي كان يعقدها بقلعة الجبل، وكان لعلم التاريخ فيها نصيب وافر(١٧).

بل نستطيع أن نقول: إن دراسة التاريخ كوَّنت جزءاً أساسياً من ثقافة المماليك المصريين وتغلغلت في كيانهم وحاولوا التأليف فيه حتي نبغوا في مجال التاريخ ودفعوا بلواء الكتابة التاريخية إلي مجالات التقدم والازدهار مثل: سيف الدين أبو بكر الدواداري (ت ما بعد ٧٣٦هـ)، وابن دقماق (٨٠٩هـ)، وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) (١٨). ويمثل القرن التاسع الهجري ذروة الازدهار بالنسبة للكتابة التاريخية في عصرسلاطين المماليك، ففيه نضجت الحاسة التاريخية عند مؤرخي ذلك العصر، واتضحت رؤيتهم للأحداث، واتسعت آفاق الدراسة والبحث والمقارنة أمامهم، واكتملت الصورة لأقصي ما بلغه مجتمعهم من تطور سياسي وحضاري، وقد بلغت فلسفة التاريخ، في هذا القرن قمتها علي يد العالم الجليل ابن خلدون، معاصر المقريزي وأستاذه، وقد صحب فلسفة التاريخ تيار النقد التاريخي في صورة جديدة مغايرة للصورة المألوفة، كما شهد هذا العصر عصر المقريزي تتابع سلسلة من أبرز المؤرخين الذين يعتز بهم علم التاريخ علي المستوي العالمي أمثال ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)، وبدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ)، وأبو المحاسن بن تغري بردي (٨١٢ - ٨٧٤هـ)، وأبو الخير محمد السخاوي(٨٣١ - ٩٠٢هـ)، ومحمد بن إياس (٨٥٢ - ٩٣٠هـ)، وجلال الدين السيوطي (٨١٢ _٨٧٤ هـ)، وشيخ المؤرخين الإمام المقريزي (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ) الذي لا يدانيه مؤرخ معاصر آخر.

لكل هذه الأسباب السابقة ورثت القاهرة بغداد زعامتها للمدارس التاريخية الإسلامية في العصر المملوكي وكان لها تميزها الإقليمي بالإضافة إلي مشاركتها المدارس الإقليمية الأخري لهذا العصر في الملامح العامة، وقد عمل في التاريخ في العهد المملوكي موظفو الدواوين الذين اهتموا بسير الحكام والسلاطين وتعليم ناشئة الديوان صناعة الكتابة وأدواتها الثقافية، والتي يشكل التأريخ جانباً منها، في حين اتجه علماء الدين إلي التراجم وعلم الرجال. وقد عني المؤرخون المصريون عناية واضحة بتاريخ مصر حتي أولئك الذين كان محتوي كتبهم التاريخية إسلامياً عاماً، فقد انطلقوا إلي

البلاد الإسلامية من خلال مصر ومن زاويتها الإقليمية، وبجانب تاريخ مصر ومن خلاله ومعه عُني المؤرخون المصـــريون في هذا العصـــر بكتابة التاريخ الإسلامي والعالمي علي السواء، كما برزت بوضوح عناية المؤرخين في مصر بالتراجم أكثر بكثير من ذي قبل، وأصبح علم الرجال الأكثر شأناً في التاريخ.

وإذا كانت كثرة التفاصيل التي يتناولها المؤرخون ويوردونها في تواريخ الأحداث السياسية، وفي كتب التراجم والرجال قد أدخلت في التاريخ بصـــورة غير مباشـــرة العديد من ملامح التاريخ الحضـاري، فإن ذلك لم يكن المجال الوحيد الذي سـجل المؤرخون من خلاله جوانب الحضـارة في عصورهم، فإنهم قد طرقوا مواضيع مختلفة وجوانب شتي من القطاعات الاجتماعية، كانت تصب كلها بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الإطار الحضاري.

فهناك عدد من المواضـيع المطروقة المتنوعة تتعلق بالتعليم السـياسـي التي تقدم النماذج المثلي لسياسة الرعية ضمن إطار الشـــرع الإسلامي، ومنها ما يتعلق بالتعليم الديواني كمؤلفات النويري (ت ٧٣٢ هـ)، وابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ)، والقلقشندي (ت٨٢١ هـ).ومنها ما يتعلق بالأقاليم والممالك، وطرق البريد ووسـائله ومراكزه مثل زبدة كشـف الممالك لابن شـاهين الظاهري ([١٩])، ومنها ما يتعلق بالتعليم العســكري حيث ظهرت كتب عديدة في الخيل وعدة الســـلاح ومعرفة الحروب وتدبرها، كما تألفت كتب تتناول الطبقات الاجتماعية، وأخري حول أهل الذمة، وحول الجواري، والحمقي، والغلمان والمتصوفة والزهاد ([٢٠]).

كما توجد مواضيع تتعلق بالمواقع وخططها وفضلها ككتاب الإمام المقريزي "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار " حول خطط القاهرة، وهناك مواضـيع تتصـل بالحياة العامة للناس، ويتبين من ذلك أن الإمام المقريزي قد طرق في مؤلفاته معظم هذه النواحي، مما جعله يتبوأ مرتبة الصـدارة في العصر المملوكي.

المبحث الثالث

المنهجية التأريخية عند المقريزى

تنبع عظمة المقريزي وشـهرته وزعامته لمؤرخي العصـر المملوكي من منهجه في كتابة التاريخ ، وليس من كثرة مؤلفاته العلمية في التاريخ وتنوع مواضيعها خاصة وقد بلغت معه المدرسة التاريخية المصرية في العصر المملوكي أوج عطائها في القرن التاسع الهجري، حيث أقام منهجه علي مجموعة من الأسس جاءت علي النحو التالي:

أولاً: المحافظة على المادة العلمية التى ينقلها من الغير:

عتبر المحافظة على المادة العلمية التى ينقلها من الغير صفة لازمة للمؤرخ بل هى الأمانة فيرويها كما هي، وأن يكون دقيقاً فيما يسجله عندما يروي بعض مشاهداته، لأنها ستكون مع الأيام سجلاً ومرجعاً يعتمد عليه اللاحقون، وربما ضاع الأصل الذي استقي منه المؤرخ روايته، وعندئذ تبقي العبارات التي سجلها المؤرخ مصدرا وشاهدا علي التاريخ، فالمؤرخ شاهد علي الناس – الموتي والأحياء، شاهد علي الماضي والحاضر، والشهادة في الإسلام لها أصولها وآدابها.

ثانياً: الالتزام بالاعتدال والدقة والبعد عن الأهواء والنزوات:

عندما ننظر فى كتابات المقريزى نجده أكثر اعتدالاً من غيره ، وأوفر دقة، وأبعد عن الاستجابة للأهواء والميول والنزوات، دائماً متحكماً في قلمه محترماً للصغير والكبير، عفيفاً في اللفظ والكلمة وحتي في نقده منضبطاً يخشى الله فيما يقول، ولا يتخذ من التاريخ أداة لتجريح الآخرين.

ثالثاً: البعد عن الخوض فى أعراض الناس:

عندما يشرع المقريزى في تأليف كتاب ما فإنه يدعو الله(٢١) " أن يعلي هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء، كما يتعوذ من تطرق أيدي الحساد إليه والجهلاء، وأن يهديه الله فيه – وفيما سواه من الأقوال والأفعال – إلي سواء السبيل ، نظرا لأن العصر الذي عاش فيه المقريزي كثر فيه التحاسد بين العلماء وتعرض بعضهم لبعض الذم والإساءة، ولكن المقريزي ظل بعيداً عن الخوض في أعراض الناس وأحيانا يدعو بالتوفيق والصلاح لكل من تحمل المسئولية وتولي قيادة الأمور في البلاد فيقول: " راجيا من الله سبحانه أن يوفق من أسند إليه أمور عباده، وملكه مقاليد أرضه وبلاده إلي ما فيه سداد الأمور، وصلاح الجمهور... وبالله المستعان علي كل ما عز وهان وهو يقول الحق ويهدي إلي سواء السبيل " (٢٢).

رابعاً: الوقوف أمام الرواية التاريخية للمناقشة والتفنيد والمقارنة:

عندما يقف المقريزي أمام الرواية التاريخية للمناقشة والتفنيد والمقارنة فإنه يقول: " فكثر تعجبي من ذلك، ومازلت أفحص عنه علي عادتي في الفحص عن أحوال العالم، حتي وقفت علي.... (٢٣)، إنها صفة متصلة في الإمام المقريزي ندر وجودها عند غيره من المؤرخين، فغيره من المؤرخين يسرد أحداث التاريخ مكتفياً بما يصل إلي علمه عن طريق النقل والسماع، أما المقريزي فزيادة علي ذلك يحرص علي أن يقف أمام الرواية التاريخية ليناقشها ويفندها، مقارناً إياها بغيرها،مستقصياً أسبابها، محاولاً تعليلها، وفي هذا كله تظهر الحاسة التاريخية المرهفة لدي المقريزي،وقدرته علي الاستيعاب وحسن العرض والتحليل والتفنيد والتعليل، (٢٤).

خامسا: تركيز الفكر في الموضوع والوصول إلي الحقائق والنتائج من أقصر الطرق:

إن منهج البحث العلمي السليم يتطلب من الباحث تركيز الفكر في موضوع معين، والوصول إلي الحقائق والنتائج من أقصـــر الطرق، وعدم تشتيت الذهن بمسائل أخري بعيدة عن موضوع البحث الأساسي، مهما تكن هذه المسائل علي درجة من الأهمية والخطورة. وإننا نلمس استقامة منهج المقريزي وعزوفه عن الاستطراد في جميع مؤلفاته الكبيرة والصغيرة، ويبدو أنه أدرك ما تعاني منه الكتابة التاريخية من تطويل يفسد صورة التاريخ، لذلك فالتزم الاعتدال والتمسك بالطريق الوسط، فلا إطالة واستطراد ولا إيجاز ولا اختصار، وهذا ما التزم به المقريزي في كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" والكتب الأخري.

سادسا: المؤرخ الناجح يكتب للحكام والأمراء والخاصة والعامة:

المقريزى لم يكن يكتب للخاصة وحدهم، وإنما كان يكتب للعامة أيضا، خاصة أنه قد قسم المجتمع المصري في العصـــر المملوكي إلي عدة أقسام ولم يهمل فيها العامة والحكام والسلاطين والأمراء فلم يكن باستطاعته أن ينزع نفسه من عصر نشأ وعاش فيه حيث يذكر في كتابته للتاريخ الحكام والسلاطين والأمراء ولا يهمل الإشارة إلي عامة الناس والشعب، (٢٥).

سابعا: المؤرخ لايسمح لنفسه أن يكون عبداً للسلطان أو أسيراً للوظيفة:

عاش المقريزي في عصـر اختلت فيه أمور طبقة المماليك الحاكمة، واهتز نظامهم، وفسدت أحوالهم، وبدت صورتهم غير ما كانت عليه في القرنين السابقين، ولكنه لم يضعف أمام بريق الجاه، ولم يصغر أمام السلاطين الذين عاصرهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب، وقد آثر في مرحلة معينة أن يعتزل ويبتعد عن الخدمة الحكومية ويترك المناصـــب للراغبين فيها، واختار عدم مداهنة الحكام والسلاطين والملوك حتي أصبحت هذه المداهنة آفة خطيرة ابتلي بها التاريخ علي مر العصور، ما يجعل بعضهم يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، وأن يقضى المرحلة الأخيرة في حياته عاكفاً في بيته بالقاهرة علي الاشتغال بالعلم والتأليف (٢٦)، لم يسمح المقريزي لنفسه أن يكون عبداً للسلطان أو أسيراً للوظيفة، الأمر الذي جعله حراً فيما يكتبه.

وبالتالي فإنه لم يكن يتحرج من نقد الأوضاع القائمة، وكشف النقاب عن أوجه الفساد في جهاز الدولة، وإلقاء المسئولية علي عاتق السلاطين والحكام، من ذلك إنه في حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان برسباي وتطرفه في سياسة الاحتكار وإنزال المظالم بالتجار حتي حل بالناس بلاء لا يمكن حكايته (٢٧).

وفي حوادث سنة٨٣٤هـ ينتقد بشدة الخلل الذي أصاب نظام الحكم وجهاز الحكومة

فتزايدت المضـــرة لكثرة التناقض وعدم الثبات علي الأمر واســـتخفاف العامة براعيها (٢٨)، وهكذا نلمس في المقريزي قلماً منطلقاً وفكراً حراً.

الموسوعية والتخصصية عند المقريزي:

صـنف المقريزى العديد من الكتب التي تتسـم بالموسـوعية والضـخامة فقد عني فيها بالتاريخ العام، وعني فيها بتاريخ مصـــر الإسلامي والسياسي، فمن الكتب التي صنفها في ثوب الموسوعية في التاريخ العام كتاب "الخبر عن البشر" (٢٩).وكتاب " الدرر المضيئة في تاريخ الدول الإسلامية " (٣٠)، وكتاب "إمتاع الأسماع بما للرســـول من الأنبياء والأحوال والحفدة والمتاع (٣١). والبعض الآخر ركز فيه المقريزي علي تاريخ مصـرالإسـلامية، وتراجم المشـاهير من أهلها وأبنائها، ومن هذا البعض كتاب " المقفي الكبير (٣٢) في تراجم أهل مصـــروالوافدين عليها، وكتاب درر العقود في تراجم الأعيان المفيدة (٣٣)، وهذان الكتابان في التراجم، خصـــص أولهما التراجم البارزين من أهل مصر، والذين وفدوا عليها وأقاموا فيها منذ الفتح العربي الإسلامي، والثاني خصصه المقريزي لتراجم المشاهير من معاصريه.

أما في تاريخ مصـــر السياسي فنلاحظ أن المقريزي كتب فيه ثلاثة كتب تغطي تاريخها منذ الفتح العربي حتي أيامه، مثل كتاب " عقد جواهر الأســـفاط في تاريخ مدينة الفســـطاط"(٣٤) ويعالج تاريخ مصـر الإسـلامية حتي بداية العصـــــر الفاطمي، والثاني كتاب " اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا " وقد عالج فيه تاريخ مصـــر الفاطمية(٣٥)، أما الثالث فهو كتاب " السـلوك لمعرفة دول الملوك "، وقد أرخ فيه الإمام المقريزي لمصـر منذ بداية الدولة الأيوبية حتي قبيل وفاته في سنة ٨٤٥هـــ، وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة التي خصصها المقريزي لعلاج تاريخ مصـــر السياسي في العصور الإسلامية يكملها الكتاب الذي أفرده لعلاج تاريخ مصـر العمراني، ونعني به كتابه " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " (٣٦) وهو موسوعة تاريخية سياسية، اقتصادية، اجتماعية ثقافية فنية.

أما الكتب التي تتسم بالتخصصية الصغيرة، فإنها رغم صغر حجمها فهى كبيرة القيمة، لأن كلاً منها عبارة عن رسـالة قيمة عالج فيها الإمام المقريزي مشـكلة من مشـاكل التاريخ، أو جانباً مهملاً من جوانبه أو طرفة من طرف المعرفة، بحيث يســـد كل منها ثغرة أحس بوجودها في عالم الفكر. وتتصـف هذه الكتب الصغيرة بالتركيز والإيجاز، ويتعرض كل كتاب منها لمشـكلة معينة في التاريخ الإسلامي.

فمن بين هذه الكتب كتاب "النزاع والتخاصـــم فيما بين بني أمية وبني هاشـــم"، يعالج فيه مشكلة قديمة في التاريخ، وكتاب "الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (٣٧)وكذلك

كتاب " الطرفة الغريبة من أخبار حضـــرموت العجيبة" يعالجان بعض الجوانب المهملة في التاريخ الإســـلامي(٣٨)، أما كتاب الذهب المســـبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك (٣٩)، وكتاب " تراجم ملوك الغرب (٤٠) فيعرفان بمجموعة من ملوك الإســـلام، ربط بينهم نشـــاط واحد أو ركن واحد من أركان الدولة الإسلامية البعيدة.وهناك من هذه الكتب الصغيرة ما قصد به المقريزي إلقاء الضـوء علي بعض لأوضـاع المعاصـرة مثل كتاب " البيان والإعراب بمن نزل أرض مصـــــر من الأعراب " (٤١) ، وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشـــرة في مصـــر علي أيام المؤلف، كما تناول الإمام المقريزي في بعض كتبه الصغيرة جوانب من العلوم البحتة، مثل كتابه " المقاصد السنية لمعرفة الأجســـام المعدنية"، فهو يتكلم عن المعادن والأجســـام المتولدة من الأبخرة والأدخنة المحتبســـة في الأرض، ويفرق بين المعادن القابلة للطَّرق وهي الذهب والفضـــة والنحاس والرصـــاص والحديد والأسراب والخارصين، والمعادن غير القابلة للطرق بسبب ليونتها كالزئبق، أو الأجسام الصلبة التي تتعرض للكسر في حالة الطرق، مثل اليواقيت والشب والنوشادر.

كما يتعرض الإمام المقريزي لبعض الكتب الصـــغيرة والتي تتناول في حديثها النّحل وأنواعه ومراحل نموه وطباعه وألوانه وأحجامه، ثم عن بيوت النحل أو خلاياه في الجبال والسـهول وأنواعها مثل كتاب " نحل عبر النحل " (٤٢).

كما تعرض أيضـاً في كتبه الصـغيرة عن ربط الحياة الواقعية والاقتصـادية بكلامه، فإنه عندما يتحدث عن النحل فإنه يوضـح القيمة الاقتصـادية للنحل وللعسـل كمورد هام من موارد الدولة، وعن الشمع الذي يخرج من بيوت النحل الذي يستخدم في الإضاءة.

وهناك من الكتب الصـــغيرة ذات قيمة اقتصـــادية واجتماعية كبيرة مثل كتاب " إغاثة الأمة بكشف الغمة" (٤٣)

المبحث الرابع

النقدى التأريخى عند المقريزى

لم يكن الإمام المقريزي في مادته التاريخية مجرد ناقلاً عن مصـــادره، أو راصـــداً لها من خلال مشـــاهداته وما سمعه، وإنما كان إلي جانب ذلك مؤرخاً ناقداً، تنوعت جوانب النقد لديه، لتتمثل في كشـــفه عن العامل الرئيس والهدف الحقيقي من كتابة هذا الكتاب، ووصـــفه للحوادث بتفرد عظيم له السـبق في هذا العمل، وتفسـير الحوادث بالكشـف عن علتها وبيان أسـبابها، وتهكمه وسخريته علي التصـرف في بعض الحوادث، والإفصاح عن عاطفته تجاه بعض الأحداث، ومواطن العبر والعظة في الأحداث، وذلك علي النحو التالي:

أولا: الافصاح عن الهدف الحقيقي من تصنيف الكتاب:

يتعرض المقريزي فى هذا الكتاب لتاريخ المجاعات والأوبئة التي أصابت مصر وأهلها منذ القدم، وحتي المجاعة الشديدة التي عاصرها (٧٩٦- ٨٠٨هـ) والتي فقد في الطاعون الذي صحبها ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦هـ، ويبدو أن هذه المحنة التي ابتلي بها المقريزي جعلته يتحمس لتأليف كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة " إذ يقول عن نفسه: " تيسر لي ترتيب هذه المقالة وتهذيبها في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة ثمان وثمانمائة "(٤٤).فهو دراسة ناقدة تحليلية، ينتقد المقريزي كثيراً من الأوضاع القائمة في الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام، ويرجع الأزمات الاقتصادية التي تحل بالبلاد إلي تلك الأوضاع والتصرفات، و يحلل تلك الأزمات تحليلاً اقتصادياً يجمع بين العمل والإيجاز، ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها في عصر سلاطين المماليك.ويوضيح حقيقتين كبيرتين، الأولي: بيان الأسباب التي نشأ منها كل المصائب والكوارث، وكيف تمادي بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع، والثانية: بيان ما بزيل ويقضي علي هذا الداء ويرفع هذا البلاء عن مصر والمصريين.

هذه الأزمة التي دفعته إلي الكتابة ليست الأولي من نوعها في تاريخ مصر وأهلها. وليست بحالة من الأحوال أشد وأقصي من غيرها، وإن بدت في نظر المعاصرين إذ يقول: القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر، إذ مقاساة اليسير من الشدة أشق علي النفس من تذكر الكثير مما سلف منها (٤٥).

ثانيا: تفرد المقريزي وتمتعه بحاسة اقتصادية اجتماعية:

تفرد المقريزي وتمتع بحاسة اقتصادية اجتماعية ظهرت واضحة من خلال كتابه هذا، وتفسيره للروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والإدارية من يقظة وسرعة بديهة، وقدرة فائقة علي الالتقاط والربط والتعليل، فكان المقريزي متفرداً في ذلك إذ يقول: " أفرد كتاباً يتضمن ما حل بهذا النوع الإنساني من المحن والكوارث ، منذ آدم عليه السلام، وإلي هذا الزمن الحاضر، فإني لم أر لأحد في ذلك شيئاً مفرداً ".(٤٦).

ثالثا: قدرة المقريزى فى معرفة أسباب الأزمات:

يمتلك المقريزي القدرة فى معرفة أسباب الأزمات التي وقعت وأحدثت المجاعات بمصر وأهلها،

ومع أنه يؤمن بأن المحن والكوارث الاقتصادية هي سنة الله تعالي في الخلق، (٤٧)، وقد أرجع الإمام المقريزي حدوث الأزمة في مصر وأهلها إلي ثلاث علل هي:العلة الأولي: انتشار الرشوة في ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة، ومن هذه المناصب ما هو عظيم القدر كبير المقام كالوزارة والقضاء، وتولي نيابة الأقاليم وولاية الحسبة الأمر الذي جعل ولايتها " لكل جاهل ومفسد وظالم وباغ " وكان يكفي أن يتوصل أحد هؤلاء إلي بعض رجال حاشية السلطان ويعده بمال للسلطان علي ما يريده من الأعمال وحتي يتسلم ما كان يرغب فيه من منصب عظيم علي وجه السرعة، وغالباً ما يتولي منصبه الجديد وليس معه من المال ما يؤديه للسلطان وحاشيته وفاء لوعده، فيضطر إلي الاستدانة، ويمد يده إلي أموال الرعية، ويتعسف في أثقالها بالالتزامات ليحصل علي ما يريد، فإذا كان صاحب الوظيفة متولياً عملاً من أعمال الريف، فإنه يثقل كواهل الفلاحين بما يفرضه عليهم من ضيافات سنية وتقادم جليلة من الخيول والرقيق وغير ذلك، ثم يمضي الإمام المقريزي في تفسيره وتعليله فيقول: " إنه لما دهي أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم، اختلت أحوالهم وهجروا الأرض، فقلت مجابي البلاد ومتحصلها لقلة ما يزرع بها، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها، لشدة الوطأة من الولاة عليهم، لذلك يعتبر المقريزي هذا السبب أصل الفساد" (٤٨).العلة الثانية: اعتبر المقريزي غلاء الأطيان هو السبب الثاني لهذه الأزمة التي عاصرها في سنة ٨٠٦ هـ حيث أن خدم الأمراء ووكلائهم " أحبوا مزيد القرية منهم، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال، فاستحضروا مستأجري أراضي الأمراء من الفلاحين وضاعفوا عليهم قيمة الإيجارات عاماً بعد عام، حتي أن إيجار العزاق – بعد حوادث هذه الأزمنة – صار عشرة أمثال ما كان عليه قبلها، وهكذا تضاعفت تكاليف الزراعة في الوقت الذي اشتدت وطأة الأمراء وأصحاب الاقطاعات علي أهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها فخرب ما ذكرنا معظم القري وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض، لموت أكثر الفلاحين وتشرد هم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب"(٤٩).العلة الثالثة: رواج الفلوس، ويعني بالفلوس هنا العملة النحاسية الصغيرة التي كثر استخدامها في ذلك العصر حتي طغت علي غيرها من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية، يقول الإمام المقريزي: "سُنة الله في خلقه وعادته المستمرة منذ كانت الخليفة إلي أن حدثت هذه الحوادث " (٥٠). هي أن يكون الذهب والفضة فقط قاعدة التعامل بين الناس، وبعد دراسة مفصلة يأتي بها المقريزي عن أصل النقود وتطورها قبل الإسلام، وفي ظل الإسلام (٥١) يختص مصر بفصل خاص، يستهله بالقول بأن الذهب ظل قاعدة التعامل الاقتصادي في مصر(٥٢). وأما الفضة فكانت تستخدم في مصر حلياً وأواني، وقد يضرب منها الشء القليل للمعاملات اليومية المحدودة التي تحتاج إليها البيوت وقد تزايد أمر الدراهم الفضية منذ أيام الخليفة

الفاطمي الحاكم بأمر الله، ومنذ ذلك الوقت ضربت الفضة نقوداً في مصـــر، وازداد تداول الدراهم الفضية، وهكذا حتي عهد السلطان الكامل محمد الأيوبي، فضـرب سنة ٦٢٢ هـ دراهم مستديرة أطلق عليها اسم الكاملية ثلثاها فضة والثلث نحاس، ولم تلبث هذه الدراهم أن حلت محل الذهب في التعامل، وانتشر استعمالها في مصر والشام بقية العصر الأيوبي، ثم في عصر المماليك، وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها وإليها تنســب عامة أثمان المبيعات وقيم الأعمال، وبها يؤخذ خراج الأرضين وأجرة المساكن وغير ذلك (٥٣).

وأما الفلوس النحاســية فيذكر الإمام المقريزي أنها خصــصــت للمحقرات من الأشــياء، أي للتعامل في الأشياء التافهة التي لا تسمو في قيمتها إلي أن تباع بدرهم أو بجزء منه، وقد كثر ضرب الفلوس منذ أيام الكامل الأيوبي، بحيث كان الدرهم الكاملي يصــرف بثمانية وأربعين فلســاً، ومع تتابع الأزمات، أكثر سلاطين المماليك من ضرب الفلوس، فكثرت وخف وزنها حتي صار التعامل بها منذ سنة ٦٩٥ هـ يتم بالميزان، بحيث يكون الرطل منها بدرهمين، وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزناً لا عدداً"(٥٤).

وهكذا حتي كانت أيام السلطان الظاهر برقوق، فأكثر من ضرب الفلوس النحاسية ، وبعث إلي بلاد الفرنجة لجلب النحاس الأحمر لضــربها، واتخذ الإســكندرية دار ضــرب لعمل الفلوس، فكثرت الفلوس بأيدي الناس كثرة بالغة، وراجت رواجاً صــارت من أجله هي النقد الغالب في البلد. هذه هي العلل الثلاث التي علل بها المقريزي للأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر، والتي دون كتابه " إغاثة الأمة بكشــف الغمة " تحت وطأتها، وبتحليل الأســباب التي ذكرها الإمام المقريزي في كتابه لتلك الأمة، نجد أنه جمع بين أمرين هما: الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد سنة ٨٠٦هـ، أما الأمر الثاني فهو اختلال أوضاع الدولة إدارياً واقتصادياً الأمر الذي جعل الأزمة لا تنفرج رغم زوال سببها الطبيعي المرتبط بنهر النيل.

أما العلل الثلاث التي ذكرها المقريزي، وفسر في ضوئها سوء الأوضاع خلال سنة٨٠٨ هـ ، فترجع في جوهرها إلي الفســاد الذي أخذ يدب في جســم الدولة بعد أن انحل نظامها، وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة في جسمها. فيقول المقريزي ما نصه: وبعد، فإنه لما طال أمد هذا البلاء المبين –يعني أزمة ٨٠٦ –٨٠٨هـ وصل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضــي مثلها، ولا مر علي زمن شــبهها، ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلي نهايته، وعرفه من أوله إلي غايته، علم أن ما بالناس ســوي تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد، لا أنه كما مر من الغلوات وانقضي من السنوات المهلكات، إلا أن ذلك يحتاج إلي إيضاح وبيان ويقتضي إلي شرح وتبيان (٥٥).

رابعا: تصريح المقريزى بالتهكم علي بعض الأمور والأحداث:

نلاحظ أن المقريزى في بعض صفحات الكتاب يتهكم علي بعض الأمور والأحداث، فيقول: " لما طال أمد هذا البلاء المبين، وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضر مثلها ولا مر في زمن شبهها، وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها، ولا يكون أبداً عن الخلق انفصالها وذلك أنهم قوم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون، ومع العوائد واقفون، ومن روح الله يأسون" (٥٦).

نلاحظ من خلال الفقرة السابقة مجموعة كلمات تدل علي تهكم الإمام المقريزي من تصرف بعض الناس مثل كلمة " لا يفقهون، جاهلون، واقفون، يائسون".

ويقول: فأهل الدولة لو ألهموا رشدهم، ونصحوا أنفسهم، لعلموا أنهم لم ينلهم ربح البتة بزيادة الأطيان، ولا بغلاء سعر الذهب الذي كان أصل هذا البلاء، وسبب هذه المحن، بل هم خاسرون ".ويقول: " فالبائس لغباوته يزعم أنه استفاد، وفي الحقيقة إنما خسر (٥٧).ويقول: " وأما باعتبار ما دهي الناس من كثرة الفلوس فأمر لا أشنع من ذكره، ولا أفظع من هوله، فسدت به الأمور، واختلت به الأحوال، وآل أمر الناس بسببه إلي العدم والزوال وأشرف من أجله الإقليم علي الدمار والاضمحلال" (٥٨).

خامسا: المقريزي يكشف عن العاطفة الدينية القوية تجاه بعض الأحداث:

المقريزي يكشف عن العاطفة الدينية القوية، والمجلة لمصر وأهلها، ومدي خوفه عليها وشفقته عليها وعلي أهلها، وتظهر هذه العاطفة من خلال أقواله التالية: (٥٩)" اعلم زادك الله بروح منه ووفقك إلي الفهم عنه، أنه لم تزل الأمور السالفة كلما كانت أصعب علي من شاهدها، كانت أظرف عند من سمعها –، ويقول: (٦٠). " اعلم حاط الله نعمتك وتولي عصمتك، أن الغلاء والرخاء مازالا يتعاقبان في عالم الكون والفساد، منذ برأ الله الخليقة في سائر الأقطار وجميع البلدان والأمصار" .ويقول: " اعلم تولي الله أمرك بالحياطة والهداية، ولا أخلاك من الكفاية والعناية أن الغلاء الذي حل بالخلق منذ كانت الخليقة، فيما نُقل من أخبارها بسائر البلاد في قديم الزمان وحديثه، علي ما عرف من أحوال الوجود وطبيعة العمران، وعلم من أخبار البشر، إنما يحدث من آفات سماوية في غالب الأمر، مثل قصر جري النيل بمصر، وعدم نزول المطر، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيفها، أو جراد يأكلها، وما شابه ذلك، هذا عادة الله تعالي في الخلق، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم (٦١).

ويقول: " لعمري لا يجهل قدر هاتين الفائدتين الجليلتين، ويجحد حق هاتين النعمتين

العظيمتين، من له أقل حظ من تمييز، وأنزر نزر من شـــعور. إلا من قصـــد أن يخون عهد الله وأمانته فيما اســترعاه من أمور عباده، بإظهار الفســاد، وإهلاك العباد، والله عز وجل لا يهدي كيد الخائنين " (٦٢)

سادسا: المقريزى يكشف عن مواطن العبر والعظات في الأحداث:

يتحف المقريزى صـــفحات كتابه بكثير من العبر والعظات من خلال الأحداث يقول: " لا تزال الحال المستقبلة تتصور في الوهم خيراً من الحالة الحاضرة، لأن ملالة الحالة الحاضرة تزين في الوهم الحالة المستقبلة، فلذلك لا يزال الحاضر أبداً منقوصاً حقه مجحوداً قدره، لأن القليل من شره يري كثيراً، إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخير، وإذ مقاساة اليسير من الشدة أشق علي النفس من تذكر الكثير ما سلف منها (٦٣).ويقول: واعلم أن المسموع الماضي لا يكون أبداً موقعه من القلوب موقع الموجود الحاضر في شيء من الأشياء، وإن كان الماضي كبيراُ والحاضر صغيراً، لأن القليل من المشاهدة أكثر من الكثير بالسماع " (٦٤).ويقول: " اعلم أن من ملكته العوائد واسترقته المألوفات، وقيدته رعونات نفسه حتي وقف علي ما عهد، ولم يتراء إلي معرفة ما غاب عنه، ولا تصور سوي ما أحس"(٦٥) .ويقول عما ينزل بالناس من البلاء أنه: " سوء التدبير من الحكام، وأن الله ابتلاهم بالقلة والذلة جزاء بما كســبت أيديهم وليذيقهم بعض الذي عملوا ولعلهم يرجعون " (٦٦).

المبحث الخامس

المنهج التحليلى عند المقريزى

يسرد المقريزى أخبار الأزمات الاقتصادية والغلوات التي حلت بمصر، ومن خلال هذا السرد ومن بين ســطوره نلاحظ مدي ما يتمتع به من حاســة تاريخية مرهفة، وقدرة عالية علي تلمس الظواهر الاقتصــادية وتحليلها والربط بينها، فالإمام المقريزي لا يقتصــر علي الســرد، ولم يقف عند هذا الحد وإنما انتقد كثيراً من الأوضاع الاقتصادية التي التمسها في عصره والتي لم يرض عنها واقتنع بأنها سبب الفساد والتردي، هذه الحاسة الاقتصادية بدت واضحة في كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة " و الذي دونه من منطلق اقتصادي بحت وفي ظل ظروف اقتصادية قاسية، وإنما بعلق بقدر ما يسمح به حجم كتابه الموجز علي الأحداث مبدياً ما يرتبط بها من مؤشرات اقتصادية متنوعة، ومن بين هذه التحليلات والتعليقات التي أبداها الإمام المقريزي علي سبيل المثال لا الحصـــــر: عندما يقصر ماء النيل يصحبه مباشرة الغلاء وارتفاع الأسعار، وكانت أسعار صرف العملة أول ما يتأثر بهذه التطورات، ويحدثنا المقريزي عن الغلاء الذي حدث سنة ٣٨٧هـ فيقول: " فارتفعت الأسعار، ووقفت الأحوال في الصـــرف، فإن الدراهم المعاملة كانت تسمي يومئذ بالدراهم المزايدة

والقطع، فتعنت الناس فيها، وكان صرف الدينار ستة وعشـرين درهماً منها، فتزايد سعر الدينار إلي أن كان في سنة ٣٩٧هـ كل أربعة وثلاثين درهما بدينار، وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس، وكثر عنتهم في الصرف (٦٧).

*كما نلاحظ من العادة في كل زمان ومكان، أن التجار والباعة يسـتغلون فرصـة الغلاء لتحقيق مكاسـب ضـخمة، والمقريزي بصـف لنا الغلاء الذي حدث في سـنة ٦٩٦هـ في أيام السـلطان العادل كتبغا (١٢٩٤ -١٢٩٦ م) فيقول: " وكثرت أرباح التجار والباعة، وازدادت فوائدهم، فكان الواحد من الباعة يستفيد في اليوم المائة والمائتين ويصيب الأقل من السوقة ربحاً في اليوم ثلاثين درهماً، وكذلك كانت مكاسب أرباب الصنائع، واكتفوا بذلك، طول الغلاء (٦٨).

فلم يفت المقريزي أن يوضـح مدي ما أصـاب هؤلاء المسـتغلين من بلاء أنزله الله بهم – عقوبة لهم – حتي" أصـيب جماعة كثيرة ممن ربح في الغلال من الأمراء والجند وغيرهم في مدة الغلاء، إما في نفسه بأنه من الآفات، أو بإتلاف ماله الإتلاف الشنيع، حتي لم ينتفع به "(٦٩).

* إن المتتبع لهذه الغلوات يجد أنها بلغت درجة من القسوة والشدة حتي جعلت الناس يأكلون القطط والكلاب، ويذكر الإمام المقريزي ذلك فيقول: قلت الكلاب، فبيع الكلب ليؤكل بخمسـة دنانير (٧٠)، ثم يقول: " أكل الناس بعضـهم بعضـاً، وتحرز الناس، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها، ومعهم سـلب وحبال فيها كلاليب، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشـلوه في أسـرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه " (٧١).

ثم يصف المقريزي الغلاء الذي حدث في سنة ٥٩٦هـ فيقول: " وعُدم القوت حتي أكل الناس صغار بني آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً،والمرأة تأكل ولدها ".(٧٢)

* في نفس الوقت يبين الإمام المقريزي أن هذه النكبات الاقتصـادية لابد وأن تكون آفات سماوية، بمثابة عقوبة إلهية للبشـر بسبب بعدهم عن الله y، وعدم التزامهم بشرعه وإتيان فرائضه فيقول: " إنها تحدث من آفات سماوية، إذا خالفوا أمره، وأتوا

محارمه، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم " (٧٣)، ويبدو أن هذا التعليل كان

بمثابة التفسـير الأول والأولي الذي حاول به المعاصـرون – حكاماً ومحكومين – تعليل المحن التي نزلت بهم، ولذلك كثيراً ما كان الناس في تلك الأزمات يعلنون توبتهم، فيكثرون من الصـلاة، كما يلجأ الحكام إلي إصـدار الأوامر بإراقة الخمور وتحريم تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد، إظهاراً للتوبة"(٧٤).

*إن المسئول الأول عن هذه المحن هم الحكام، فالشعب لم يعفهم من المسئولية، والدليل علي ذلك أنه في كثير من الأحيان والحالات تثور الرعية (٧٥).

كما حدث في أيام الغلاء سنة ٧٩٨هـ (٧٦) أن هدد العوام المحتسب وكانت السلاطين تخشي غضبتهم، فقد لجأ بعض السلاطين عند حدوث غلاء إلي الأمر بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم علي الأغنياء والأمراء، بحيث يلتزم كل غني وكل أمير طعام عدد منهم معين ، وفي الغلاء الذي حدث سنة٧٧٦ هـ أمر السلطان الأشرف شعبان، بجمع الفقراء، ووزعهم علي الأمراء ومياسير التجار"(٧٧).ولا شك في أن احتكار سلاطين المماليك لبعض السلع والغلات الهامة مثل التوابل والبخور أدي إلي ارتفاع أثمانها ارتفاعاً فاحشاً، وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها علي عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ هـ / ١٤٢٢ م – ٨٤١هـ /١٤٨٣م) (٧٨).

*لقد كان المقريزي شديد الإيمان بأن الكوارث الاقتصادية هي عادة الله عز وجل في الخلق إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه، ومع ذلك ذكر أن كل أزمة من الأزمات وكل كارثة من الكوارث كان وراء حدوثها نقص النيل وعدم وفائه ومع ذلك أرجع الأمر أيضا فساد الخطط السلطانية، وغلاء الأطيان ورواج الفلوس وطغيان العملة النحاسية علي العملة الذهبية، مما جعل المقريزي يكتب كتابه" إغاثة الأمة بكشف الغمة ".

إذا كان الجانب الاقتصادي قد ظهر جلياً في كتابات الإمام المقريزي فإن الجانب الاجتماعي في كتاباته لا يقل شأناً ولا أهمية، ولما كانت الأوضاع الاجتماعية مرتبطة بأحكام الدين وآدابه من ناحية، وبالظروف الاقتصادية من ناحية أخري، فإننا نجد الإمام المقريزي ينتقد سوء أوضاع المجتمع من خلال سرده التاريخي، ومن خلال معالجته للجوانب الاقتصادية لذلك وضع الإمام المقريزي تقسيماً للمجتمع المصرى في عصر المماليك نجعل أهل مصر سبع أقسام: المماليك وهم أهل الدولة، وأهل اليسار من التجار، وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والباعة ومتوسطو الحال من التجار، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة وأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن، وأخيرا ذوو الحاجة والمسكنة وهم: " السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم " (٧٩).

الخاتمة

نخلص مما سبق من دراسة المقريزي وكتابه إلي النتائج التالية:

- النهضة التي حدثت في العصر المملوكي وطرقت جميع جوانب النشاط الحضاري وأسهمت فيه كان السبب فيها ثلاثة عناصر تضامنت مع بعضها البعض، عنصر المال الذي مكن المماليك من إقامة المنشآت والمؤسسات والمشاريع، وتشجيع العلماء، وعنصر البيئة الحضارية، ويقصد بها الأرض الطيبة ذات الإمكانات الحضارية الراسخة وذات المناخ المناسب الذي يساعد علي الإنتاج

والموقع الوسط الذي يجعل منها باباً مفتوحاً علي الحضارات الأخري، وعنصـــر الإنسان، وهذا العنصر البشري البناء هر الذي يملك الاستعدادات والقدرة علي الإنتاج والإيداع.

- موسوعية وتخصصية المقريزي، أما كتبه التي تتسم بالموسوعية فإنها تموج بتفاصيل التاريخ وأعمال الخلفاء والسـلاطين والملوك وتراجم المشـاهير من الحكام والأمراء والعلماء والتجار، أما كتبه التي تتسم بالتخصصية فإنها تتصف بالتركيز والإيجاز، وأن كل كتاب منها يشتمل علي موضوع محدد أو مشكلة بعينها في التاريخ .
- الإسلامي أو في الأوضاع المعاصرة اقتصادية كانت أو اجتماعية أو غير ذلك.
- سبق المقريزي عصره بتضمن كتابه " إغاثة الأمة " كثيراً من الآراء والنظريات التي تتعلق بالناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، أو بسوء تصرف الحكام.
- يحلل المقريزي الأزمات الاقتصـادية التي حلت بمصـر تحليلاً اقتصـادياً يجمع بين العمق والإيجاز ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية.
- لم تنبع زعامة المقريزي لمؤرخي عصـره من كثرة مؤلفاته وإنما نبعت هذه الزعامة من خلال المنهج التاريخي الذي سـلكه وألزم نفسـه به من أمانة علمية وتجرد من الهوي وعدم التعصـب، كما ألزم نفسه بالدقة والرغبة في معرفة أسباب الظواهر
- وعلل الأحداث، وأن كتاباته تشمل الخاصة والعامة دون أي مداهنة للحكام.
- اعتني المقريزي في منهجه التاريخي بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية لما لديه من حاسة تاريخية واستعداد عقلي ونفسي نابع من داخله مكنه هذا الإحساس وهذا الاستعداد من ربط الأسباب النتائج، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والإدارية في البلاد.

هوامش البحث:

[1]- انظر ترجمته في كتاب: المنهل الصافي لابن تغري بردي ،أبي المحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٤ هـــ طبعة القاهرة ١٩٥٦م، ١/ ٣٩٤، والضوء اللامع في علماء القرن التاسع، لشمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت ٩٠٢هـ ، طبعة مصر ١٩٣٩م ٢/ ٢٢، وشذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ٧ /٢٥٥، طبعة المكتب التجاري، بيروت بدون تاريخ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكرت ٩١١ هـــ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٨م ١/٣٢٠، وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، طبعة دار الهلال القاهرة ١٩٥٨م. ٣/١٨٤-١٨٦

[2]- انظر الخطط المقريزية، للإمام المقريزي طبعة القاهرة ١٣٢٥ هـ . ٢/٤٠٤-٤٠٥

[3]- الخطط المقريزية، للمقريزي ٢ / ٩٥ طبعة بولاق. (د.ت)

[٤]- هو عبد الله بن محمد بن الصايغ ت ٧٧٨هـ، انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢٥٧/٦.

[٥]- الضوء اللامع، للسخاوي، ٢١/٢.

[٦]- التاريخ العربي والمؤرخون، لشاكر مصطفي ٣ / ١٤٠.

[٧]- الضوء اللامع للسخاوي ٢/ ٢١.

[٨]- الضوء اللامع للسخاوي ٢ / ٢١ -٢٢.

[٩]- مؤرخو مصر الإسلامية، محمد عبد الله عنان ص ٨٨.

[١٠]- فنون الإسلام، زكي محمد حسن، ص ٧١.

[١١]- Hobson: A guide to the Islamic Pottery of the Near East, p. 65

[١٢]- Wiet: Objets en Cuivres, p. 272

[١٣]- Wiet: Lampes en Verre Emaill. pp. 67- 100

[١٤]- Ibrahim Salama: L'Emseignement Islamique en Egypte. p. 60-64

[١٥]- انظر الحديث باستفاضة عن المدارس والمكتبات عند الإمام المقريزي في كتابه الكبير "المواعظ والاعتبار ٢/ ٣٩٥ -٣٩٧.

[١٦]- النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي ١٨٢/٧.

[١٧]- مجالس الغوري، لعبد الوهاب عزام، ص ٤٩.

[١٨]- انظر المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر، رسالة دكتوراه، محمد محمد محمود، بقسم التاريخ. كلية دار العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٧٩م، ص ٢٥٥، ٢٦٣، ٢٨٠، ٢٨٩.

[١٩]- هو خليل بن شاهين السيخي الصفوي الظاهري ت ٨٧٣ هـ، فقيه ومفسر ومؤرخ وأديب وشاعر. انظر معجم المؤلفين لكحالة ٦٨٤/١.

[٢٠]- انظر العصر المماليكي في مصر والشام، سعيد عبد الفتاح عاشور، ص ٣٤٢.

[٢١]- المواعظ والاعتبار، للمقريزي ٣/١ طبعة بولاق.مصر .(د.ت).

[٢٢]- إغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزي الصفحة (٣) المخطوط.

[٢٣]- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي الجزء الرابع حوادث سنة ٨٢٦هـ.

[٢٤]- انظر المخطوطة ص٩، ٢٥، حيث يعلل فيها نزول المحن وينتقد سوء الأوضاع الاجتماعية.

[٢٥]- انظر المخطوطة، ص ٤٤.

[٢٦]- الضوء اللامع. للسخاوي ٢/ ٢١.

[٢٧]- كتاب السلوك المعرفة دول الملوك، للمقريزي الجزء الرابع حوادث سنة ٨٣٢هـ.

[٢٨]- المواعظ والاعتبار، للمقريزي ٥٠/١ طبعة بولاق.

[٢٩]- كتاب " الخبر عن البشر كتاب في التاريخ العام، قالت المصادر أن المقريزي جعله كالمدخل لكتابه "إمتاع الأسماع فيما للرسول من الحفدة والأتباع " ويذكر ابن تغري بردي في " المنهل الصافي " أنه في أربعة مجلدات وعمل له مقدمة في مجلد، منه ستة أجزاء مخطوطة في مكتبة أحمد الثالث برقم ٢٩٢٦ / ١، ٢، ٣،٤،٥،٦ من ٨٥٨٩٩ إلي ٨٥٩٠٤ ، وهنالك نسخة في مكتبة فاتح باستامبول في ستة أجزاء بخط المؤلف، مصورة في دار الكتب مصر

تحت رقم (٩٤٧ تاريخ) في ١٦ مجلداً، ونسخة ثالثة في الأزهر رقم تاريخ ٤٣٩ (٦٧٣٣) أباظة الجزء الثاني فقط. انظر التاريخ العربي والمؤرخون، شاكر مصطفي ٣ / ١٤٦.

[٣٠]- وهو كتاب يضم بين دفتيه من مقتل عثمان بن عفان إلي مقتل المستعصم ونهاية الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ)، وهو مخطوط في كمبردج رقم ٤٩ في ٢٧٣ ورقة كبيرة كتب بعد عهد المؤلف بقليل دون خاتمة وبه تزيينات.

[٣١]- وهو يتحدث في شمائل النبي والنبوات وآل الرسول والسيرة النبوية والهجرة والغزوات، ومجموعة من الأخبار عن أحوال الرسول وأحكامه وأعماله ودقائق حياته وحديثه، قد طبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٤١م بتحقيق محمود محمد شاكر، وانظر التاريخ العربي والمؤرخون شاكر مصطفي ٣ / ١٤٦، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع محمد صالحية ٥/ ١٤٠.

[٣٢]- وهو كتاب حافل في تراجم الملوك والأمراء والعلماء المصريين أو من عرفتهم مصر من جميع الأقطار، وقد جعله المقريزي علي حروف المعجم، وقد طبع ببيروت فى ١٩٧١م بتحقيق سهيل زكار. وطبع فى تونس عام ١٩٨٦م بتحقيق محمد البعلاوي، وفى بيروت عام ١٩٨٧م .

[٣٣]- كتاب " درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة " ثلاث مجلدات، ترجم فيه لأعيان عصره البارزين منهم علماء اليمن، وقد نقل عنه السخاوي في الضوء اللامع عدد من التراجم ، ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة في مجلدين نقلت عن نسخة بخط المؤلف سنة ٨٧٨هـ وتقع في ٢٩٢ ورقة رمي في مكتبة آل الجليلي الخاصة في الموصل، انظر التاريخ العربي والمؤرخون شاكر مصطفي ٣/ ١٤٨.

[٣٤]- وهو أول كتاب كتبه المقريزي في تاريخ مصر الإسلامي الأول، ثم أتبعه بكتاب " اتعاظ الحنفا " في تاريخ مصر زمن الفاطميين ليأتي من بعدهما "كتاب السلوك " فيغطي العهدين الأيوبي والمملوكي ومنه نسخة مخطوطة في برلين ضمن مجموعة خطية تحمل رقم ٩٨٤٥، انظر التاريخ العربي والمؤرخون، شاكر مصطفي ١٤٨/٣.

[٣٥]- وهو أوفي مصدر في التاريخ الفاطمي، وقد طبع عدة طبعات. انظر التاريخ العربي والمؤرخون شاكر مصطفي ٣/ ١٤٤، والمعجم الشامل للتراث العربي محمد صالحية ٥/ ١٣٧ – ١٣٨.

[٣٦]- وهو موسوعة تاريخية مشهورة طبعت فى باريس عام ١٨٢٦م، وطبعة بولاق ١٨٥٣م وطبعة النيل ١٩٠٦م، وطبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩١١ –١٩٢٨م، وطبعة بيروت ١٩٥٩م، وطبعة دار التحرير بالقاهرة ١٩٦٧م،

انظر المعجم الشامل محمد صالحية ٥ /١٤٥ – ١٤٦.

[٣٧]- كتب المقريزي هذا الكتاب في مكة عام ٨٣٩ هـ، وحرره في مصر عام ٨٤١ د بعد تدقيقه، وقد تم طبعة أكثر من مرة، طبعة القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر لعام ١٨٩٥م، وطبعة القاهرة مطبعة الموسوعات العام ١٩٠٠م، انظر ذلك في المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع. محمد عيسي صالحية ٥/ ١٣٩ –١٤٠.

[٣٨]- هي رسالة كتبها وهو مجاور في مكة سنة ٨٣٩هـ وقد طبعت سنة ١٨٦٦م في بون بعناية المستشرق سكوي باللغتين العربية واللاتينية، انظر التاريخ العربي ، لشاكر مصطفي ٣ / ١٤٧.

[٣٩]- كتبه المقريزي سنة ٨٤١ هـ ، انظر المعجم الكامل للتراث العربي ا، ١٤١/٥. وقد قمنا بعمل دراسة عليه وتحقيقه تحقيقا علميا ، صدرت طبعته الأولى عن دار عين بالقاهرة لعام ٢٠٠٩م.

[٤٠]- توجد منه نسخ مخطوطة في ليدن وفيينا، انظر التاريخ العربي ، شاكر مصطفي ٣ / ١٣٩.

[٤١]- وقد طبع هذا الكتاب أكثر من طبعة، انظر في ذلك المعجم الشـــامل للتراث العربي المطبوع، محمد عيســـي صالحية ٥/ ١٤٠-١٤١.

[٤٢]- وقد طبع هذا الكتاب في مكتبة الخانجي -بالقاهرة عام ١٩٤٦م. انظر المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، محمد عيسي صالحية ١٤٦/٥-١٤٧.

[٤٣]- وهو الكتاب الذي نحن بصدد تحقيقه وعمل هذه الدراسة.

[٤٤]- انظر المخطوطة، الصفحة الأخيرة.

[٤٥]- انظر المخطوطة، ص ٣.

[٤٦]- انظر المخطوطة، ص ٥.

[٤٧]- انظر المخطوطة. ص ٥٠، ٥١.

[٤٨]- انظر المخطوطة، ص٢٧.

[٤٩]- انظر المخطوطة، ص٢٨.

[٥٠]- انظر المخطوطة، ص٢٩.

[٥١]- انظر المخطوطة ص ٣٨، ٤٥.

[٥٢]- انظر المخطوطة،ص ٣٨.

[٥٣]- انظر المخطوطة، ص ٤٠.

[٥٤]- انظر المخطوطة، ص ٤٣.

[٥٥]- انظر المخطوطة، ص ٢، ٣.

[٥٦]- انظر المخطوطة، ص٢.

[٥٧]- انظر المخطوطة، ص ٤٢

[٥٨]- انظر المخطوطة، ص ٤٩.

[٥٩]- انظر المخطوطة، ص ٣.

[٦٠]- انظر المخطوطة ص ٤،٥.

[٦١]- انظر المخطوطة، ص ٢٥.

[٦٢]- انظر المخطوطة، ص ٥٠.

[٦٣]- انظر المخطوطة، ص٣.

[٦٤]- انظر المخطوطة، ص ٤.

[٦٥]- انظر المخطوطة. ص ٥٠.

[٦٦]- انظر المخطوطة، ص٥٣.

[٦٧]- انظر المخطوطة، ص ٩.

[٦٨]- انظر المخطوطة، ص ٢٢.

[٦٩]- انظر المخطوطة، ص ٢٣.

[٧٠]- انظر المخطوطة، ص ١٥.

[٧١]– انظر المخطوطة، ص ١٥. ولكن أقول إن في كلام الإمام المقريزي هذا مبالغة، ومبالغة غير مقبولة، فلعله يريد أن يبين لنا مدي قسوة تلك الأزمات، ومدي ما أحدثته الغلوات بالناس.

[٧٢] – انظر المخطوطة، ص ١٧، ١٨.

[٧٣] – انظر المخطوطة، ص ٢٥.

[٧٤] – انظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، حوادث ٧٠٩هـ، ٧٨١هـ،٨٣١هـ.

[٧٥] – انظر المخطوطة. ص ٧.

[٧٦] – انظر كتاب السلوك للمقريزي، ٢٤٢/٣ – ٢٤٣.

[٧٧] – انظر المخطوطة، ص ٢٥.

[٧٨] -Wiet: L'Egypte Arabe, p578

[٧٩]– انظر المخطوطة، ص ٤٤.

مصادر ومراجع البحث:

١– حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة:جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسي البابي الحلبي –مصر ١٩٦٧/ ١٩٦٨

٢–الخطط المقريزية:أحمد بن علي المقريزي ت ٨٤٥هـ، طبعة القاهرة ١٣٢٥هـ، وطبعة مكتبة العرفان –بيروت بدون تاريخ.

٣–السلوك لمعرفة دول الملوك:أحمد بن علي المقريزي ٨٤٥هـ، تحقيق محمد مصطفي زيادة، وسعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة ١٩٣٤، ١٩٧٠، ١٩٧٢م

٤–شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ، طبعة المكتب التجاري، بيروت بدون تاريخ،

٥– الضوء اللامع في علماء القرن التاسع:أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت ٩٠٢ هـ. طبعة مصر ١٩٣٦م.

٦–مخطوط إغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزي نسخة مكتبة ولي الدين بجامع بايزيد بإستانبول (رقم ٣١٩٥) وقد كتبت في سنة (١١٠١هـ)

٧–المنهل الصافي:ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين ٨٧٤هـ، طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

٨–النجوم الزاهرة:ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين ٨٧٤هـ، طبعة القاهرة ١٩٣٢م.

٩– تاريخ آداب اللغة العربية:جرجي زيدان، طبعة دار الهلال –القاهرة ١٩٥٨م.

١٠–التاريخ العربي والمؤرخون:شاكر مصطفي، طبعة دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٠م.

١١–العصر المماليكي في مصر والشام:سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة –القاهرة ١٩٩٣م.

١٢–فنون الإسلام:زكي محمد حسن، طبعة القاهرة ١٩٤٨م.

١٣–مجالس السلطان الغوري:عبد الوهاب عزام، طبعة القاهرة ١٩٤٨م.

١٤-المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع:محمد عيسي صالحية، طبعة معهد المخطوطات العربية القاهرة ١٩٩٥م.
١٥- معجم المؤلفين:عمر رضا كحالة، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م.
١٦-مؤرخو مصر الإسلامية:محمد عبد الله عنان، طبعة مؤسسة مختار -القاهرة ١٩٩١م.
١٧-المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر:محمد محمد محمود، رسالة دكتوراه -كلية دار العلوم -جامعة القاهرة، قسم التاريخ والحضارة للعام ١٩٧٩م.
18- Wiet: L'Egypte Arabe,
19- Hobson: A guide to the Islamic Pottery of the Near East
20- Wiet: Objets en Cuivres
21- Wiet: Lampes en Verre Emaill
22- Ibrahim Salama: L'Emseignement Islamique en Egypte